AL-SABAH
الصباح الإسلامية
No. 3992 | الأربعاء | 28 شوال 1442 هـ | 9 يونيو 2021 م | السنة الرابعة عشرة
Alsabah Media www.alsabahpress.com

شاعرة الرثاء الأولى وراوية الحديث النبوي

الخنساء وعائشة مثلتا الأدب النسائي في صدر الإسلام

إعداد : هذال المطيري

كان للنساء أيضا دور في الحياة البلاغية في صدر الإسلام ومن أشعر نساء العرب التي عاصرت الإسلام هي الشاعرة الخنساء تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد بن رباح بن يقظة ابن عصية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة (وقيل نهية) بن سليم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر وتكنى أم عمرو وإنما الخنساء لقب غلب عليها واشتهرت به هو مأخوذ من الخنس ومعناه تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع في الأرنبة، ومن معاني الخنساء أيضا الظبية أو البقرة الوحشية، وقد كانت الخنساء رائعة الجمال.

خطبتها وزواجها

قد تقدم لخطبة الخنساء أناس كثيرون، من جملتهم دريد بن الصمة فارس هوازن وعميد بني جشم لكنها رفضته وآثرت التزوج في بني قومها قائلة «يا أبت أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح وناكحة شيخ بني جشم هامة اليوم أو غد؟»

ثم أنشدت تقول:

اتخطبني هبلت على دريد
وقد طردت سيد أل بدر
معاذ الله ينكحني حبركى
يقال: أبوه من جشم بن بكر

ولما رفضت الخنساء دريدا تقدم لخطبتها رواحة ابن عبد العزيز السلمي، فتزوجته وأنجبت له عبد الله ويكنى أبا شجرة، ثم خلفه عليها مرداس بن أبي عامر السلمي فولدت له من الذكور: يزيد ومعاوية وعمراً ومن الإناث: عمرة وكانت شاعرة مثل أمها الخنساء. وقد تزوجت عمرة بنشبة فولد لها منه ولد سمته الاقيصر مات صغيراً.

إسلامها

قدمت الخنساء مع قومها بني سليم على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلنوا إسلامهم وأسلمت الخنساء معهم، فكان الرسول صلوات الله عليه يقربها منه ويستنشدها فكانت تنشده فيعجب بشعرها ويستزيدها قائلا «هيه يا خنساء» قيل إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سألها: ما أقرح مآقي عينيك» قالت بكائي على السادات من مضر. قال: يا خنساء إنهم في النار، قالت، ذاك أجدر بعويلي عليهم، ذات مرة عذلها عمر رضي الله عنه ووعظها وقال لها: إن الذي تفعلين ليس من صنع الإسلام وإن الذين تبكين هلكوا في الجاهلية. فقالت: اسمع مني يا أمير المؤمنين ما أقول في عذلك إياي ولومك لي، فقال هات فأنشدته من شعرها في أخويها فتعجب من بلاغتها وقال: «دعوها فإنها لا تزال حزينة أبداً». وصادف بعد هذا بقليل أن شاهدها رضي الله عنه داخل بيت الله الحرام وهي تطوف بالبيت محلوقة الرأس تبكي وتلطم خدها وقد علقت نعل صخر في خمارها كما كانت تعمل المرأة في الجاهلية إذا أصيب لها كريم حلقت شعرها وأخذت تضرب رأسها بنعليها فتعقره وتلطم خديها وتمزق ثيابها ونهى الإسلام عن ذلك كله، فوعظ بها أمير المؤمنين فقالت: إني رزئت فارسا لم يرزأ أحد مثله، فقال: إن في الناس من هو أعظم مرزئة منك وإن الإسلام قد غطى ما كان قبله، وإنه لا يحل لك لطم وجهك وكشف رأسك. فكفت عن ذلك وقالت: ترثي أخويها معاوية وصخرا معا:

ولكني وجدت الصبر خيرا
من النعلين والرأس الحليق
واني والبكا من بعد صخر
كسالكة سوى قصد الطريق

عائشة رضي الله عنها

وتأتي أيضا في الحياة الأدبية في صدر الإسلام من النساء أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما كانت لها من المكانة الأدبيّة العالية وثناء الصّحابة والتابعين وعلماء الأمّة على فصاحتها وبلاغتها:

بلغَتْ أمُّ المؤمنين عائشة من الفصاحة والبيان مبلغًا عظيمًا؛ ممّا دفعَ كبار الصحابة إلى الثّناء عليها، والإعجاب بفصاحتَها وبلاغتها العالية، فها هو معاويةُ رضي الله عنه يقولَ: «والله مَا سمعتُ قطُّ أبلغَ من عائشة رضي الله عنها».

وقال المقداد بن الأسود رضي الله عنه: ما كنتُ أعلم أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمَ بشعر ولا فَريضة من عائشةَ رضي الله عنها».

وعندما قيل لعرَوة بن الزُّبير: «ما أرواك»، فقال: «ما روايتي في رواية عائشة؟ ما كان يَنزل بها شيءٌ إلا أنشدَتْ فيه شعرًا».

وقال موسى بن طلحة وهو أحد تلامذتها: «ما رأيتُ أحدًا أفصحَ من عائشة رضي الله عنها».

وكان الشّعبيُّ يَذْكرها، فيتعجّبُ من فقهها وعلمها، ثمّ يقول: ما ظنّكم بأدب النبوّة؟!

وكانت تقول رضي الله عنها عن نفسها: «الشّعر منه حسَنٌ ومنه قبيح، خُذْ بالحسن، وَدَع القبيحَ، ولقد رويتُ من شعر كعب بن مالك أشعارًا، منها القصيدة فيها أربعون بيتا، ودون ذلك».

وفي تفسير روح المعاني للألوسي: يستدلُ المصنّفُ على صحّة قراءة قرآنيّة، بفصاحة عائشة رضي الله عنها وبلاغتها، وذلك في تفسير قوله تعالى: (فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ) [البقرة: 283]، فقال:»ومنه قراءةَ ابنَ مُحَيصَن «اتُّمِن»، ونقل الصّاغاني أن القول بجوازه مذهبُ الكوفيّين، ووَرَد مثلُه في كلام أمّ المؤمنين عائشَة رضي الله عَنها وهي من الفصَحاء المشهود لهم، ففي البخاريّ عنها رضي الله عنها: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلّم يأمرني، فأتّزر».

قال ابن عبدالبرّ: «كانت وحيدةَ عصرها في ثلاثة علوم: علم الفقه، وعَلم الطّب، وعلم الشّعرَ».

شدّة حرصِها على استقامة اللِّسَان، وغضبِها من اللحن

وهي رضي الله عنها لشدّة اهتمامها باستقامة اللسان وقوّة البيان، ولأنّها – كما هو دأبُ أهلِ زمانِها – تجد في تعثّر اللغة على لسان المتكلم منقصةً، تخلُ بالوَقار، وتطعنَ في الهيبة؛ فقد عُرِفَ منها أنّها تغضبُ أشدّ الغضب، إذا سمعت أحدًا يلحَنُ في كلامه، فهي لا تتورّع عن زجره، ولا تتردّد في تأنيبه، فيَبلغ بها الضيق باللّحن حدّ الأذى، فلا تحتمله نفسُها، ولا تتقبّله ذائقتُها، وهذا موقفٌ لا يُتيحُه لها إلاّ مَنْزلة رفيعة في الفصاحة، وإلاّ مكانة مرموقة فوق عرش اللّغة والذرابة، فمن ذلك أنّ ابن أبي عَتيق قال:

تحدّثت أنا والقاسم عند عائشة رضي الله عنها حديثًا، وكان القاسم رجلاً لَحّانة، وكان لأمّ ولد، فقالت له عائشة: ما لك لا تحدّثُ كما يتحدّث ابنُ أخي هذا؟ أما إنّي قد علمتُ من أين أتيت، هذا أدّبَتْه أمُّه، وأنت أدّبتك أمُّك، قال: فغضب القاسم، وأضبّ عليها، فلما رأى مائدة عائشة قد أُتي بها قام، قالت: أين؟ قال: أُصلي، قالت: اجلس، قال: إني أصلي، قالت: اجلس غُدَرُ! إنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا صلاة بحضرة الطّعام، ولا هو يُدافعُه الأخبثان).

ونظرًا إلى هذا الذوق العالي الرفيع للشعر لدى عائشة؛ كان الشعراء يعرضون عليها قصائدَهم، وهذا حسّان بن ثابت الذي كان مُعلّمَ الشعراء في الأنصار دون منازع، رغم سخط عائشَة عليه لكونه خاض في الإفك، كان يدخل عليها ويُنشدُها شعرًا، وكانت رضي الله عنها تكرَهُ أن يُسَبّ عندَها، بل كانت تمدحُه وتذكرُه بالخير.

وهذه نماذج لبعض المواقف التي تمثلت فيها ببديهتها الحاضرة أبياتًا من الشعر:

مدح الشّاعر الجاهلي أبو كبير الهذلي، ابنَه تأبّط شرًّا بقصيدة فيها البيتان التاليان كما وردا في «ديوان الحماسة»:

وَمُبَرّأٍ مِنْ كُلِّ غُبّرِ حَيْضَة
وَرَضَاعِ مُغْيِلَةٍ وَدَاءٍ مُعْضِلِ
فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَسِرّةِ وَجْهِه
بَرَقَتْ كَبَرْقِ العَارِضِ المُتَهَلِّلِ

غُبّر حيضة؛ أيْ: بقايا حيضة، المغيلَ: من الغَيلة – بكسر الغين – وهو أن تُغشى المرأة وهي ترضع، معناه: أنّها حملتْ به وهي طاهرة ليس بها بقيّة حيض، ووضعَتْه ولا داء به استصحبه من بطنها، ولم ترضعه أمُّه غيلاً.

أسرّة وجهه: أي خطوط جبهته، العارض من السّحاب: ما يَعرض في جانب السماء، والمتهلّل المتلألئ بالبَرْق؛ يقول: إذا نظرت في وجهه رأيت أسارير وجهه تُشرق إشراق السحاب المتهلّل بالبرق.

فمدحَتْ عائشةُ رضَي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذين البيتين، وقالت: «لو رآك أبو كبير الهذلي، لعلم أنك أحقُّ بشعره»، قالت: فقام النبيُّ صلىً الله عليه وسلم وقبّل بين عينَيّ، وقال: (جزاكِ الله يا عائشة خيرًا، ما سُررْتِ مني كسروري منك).

وفي حديث عائشَة رَضِيَ الله عنها في صفته صلى الله عليه وسلم قالت: تَبْرُقُ أساريرُ وجهه.

ولَمّا تُوفّيَ عبد الرحمن بنَ أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما حُملَ إلى مكّة، فدُفنَ فيها، ولم تحضرهَ عائشة رضي الله عنها فلمّا قدمت المدينة، أتَتْ قبرهِ وقالت: يا أخي، لو كنتُ شهدتُ وفاتَك لم أزُر قبرك، ثم تمثّلتْ:

وَكُنّا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً
مِنَ الدّهْرِ حَتّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدّعَا
فَلَمّا تَفَرّقْنَا كَأَنّي وَمَالِكًا
لِطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

كان رسول الله صلىَ اللهَ عليهَ وسّلم كثيرًا ما يقول لي: ما فعلتْ أبياتُك؟ فأقول: أي أبيات؛ فإنها كثيرة؟ قال: في الشّكر، قلت: نعَم، فذكر الثلاثة الأبيات، يعني:

ارْفَعْ ضَعِيفَكَ لا يَحِرْ بِكَ ضَعْفُهُ
يَوْمًا فَتُدْرِكَهُ العَوَاقِبُ قَدْ نَمَا
يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنّ مَنْ
أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا صَنَعْتَ كَمَنْ جَزَى
إِنّ الكَرِيمَ إِذَا أَرَدْتَ وِصَالَهُ
لَمْ تَلْفِ رَثّا حَبْلَهُ وَاهِي القُوَى

فقال: (نعم يا عائشة، إذا حشَرَ الله الخلائق يَوم القيامة قال لعبد من عبيده: اصطنع فلانٌ عبدٌ من عبادي عندك معروفًا، فَهل شكرتَه؟ فيقول: علمتُ يا ربّ أنّ ذلك منك فشكرتُك، فيقول: لم تشكرني إذا لم تشكر مَنْ أجريتُ ذلك على يديه).

وعن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة أنّها قالت: «رحم الله لبيدًا كان يقول:

ذَهَبَ الّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ
وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

قال عروة: رحم الله عائشةَ، فكيفَ لو أدركَتْ زماننا هذا؟!

وقالت لَمّا حضرَتْ أباها الوفاةُ مُتمثّلةً:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثّرَاءُ عَنِ الفَتَى
إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصّدْرُ

فقال لها: لا تقولي هكذا يا بُنيّة، ولكن قولي: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ) [ق: 19].

ومما ترويَهَ لنا مَن شَعر حسّانَ:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اهْجُوا قُرَيْشًا؛ فإنّه أشدُّ عليها من رَشق بالنّبْل).

فأرسل إلى ابنَ رواحَة، فقال: (اهْجُهم)، فهجاهم، فلم يَرْض.

فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسّان بن ثابت، فلما دخل عليه قالَ حسّان: قد آنَ لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسَد الضارب بذنَبه، ثم أدلعَ لسانَه، فجعل يحرّكه، فقال: والذي بعثَك بالحقّ لأفْرِيَنّهم بلساني فرْيَ الأديم، فقال رسولُ الله صلى الله عَليهَ وسلم: (لا تعجل؛ فإنّ أبا بكر أعلَمُ قريش بأنسابها، وإنّ لي فيهم نسبًا، حتى يُلخِصَ لك نَسَبي)، فأتاه حسّانَ، ثم رجع، فقال: يا رسول اللهَ، قد لخّصَ لي نسبك، والذي بعثك بالحقِ لأسُلّنّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين.

قالت عائشة: فسمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان: (إنّ روح القدس لا يزال يؤيّدُك ما نافحْتَ عن الله ورسوله).

وقالت: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (هجاهم حسان فشفى واشتفى)، قال حسان:

هَجَوْتَ مُحَمّدًا فَأَجَبْتُ عنهُ
وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ
فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمّدًا بَرّا تَقِيّا
رَسُولَ اللهِ شِيمَتُهُ الوَفَاءُ
فَإِنّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي
لِعِرْضِ مُحَمّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ